٩

قِصَص الحُب

على هامش القضية :

تستعين كتب الحب جميعها تقريبا بالقصص ، أو بالأخبار التى توشك أن تأخذ فى صياغتها وشكلها سمتا قصصيا ، بصورة أساسية تقريبا ، حتى لقد تحول بعض هذه الكتب إلى سلسلة من القصص أو الأخبار القصصية المتتابعة ، التى لا تكاد تفرق بين الخبر التاريخى فى شكل أو إضافة قصصية ، والقصة المسوقة فى جو من الملابسات التاريخية توسلا ، أو توصلا للاقناع بواقعيتها ، كما هو مشاهد فى « مصارع العشاق » بصفة عامة .

هناك فوارق ثابتة بين الخبر والقصة – بالمفهوم العصرى – فالخبر ذو لغة تقريرية ، والقصة تجنح إلى التصوير والتحليل . والخبر يهدف إلى غاية هى نقل المعنى أو الخلاصة فى وضوح وتحدد ، أما القصة فإنها نسيج ممتع فى كل مراحله ، لا يهدف إلى مجرد نقل المعنى ، بل الاقناع به بطريق التصوير الايحائى . والخبر – أخيرا – يحاول أن يؤكد صلته بالواقع ويستمد من صدق حدوثه مشروعية روايته ، أما القصة فإنها واقع قائم بذاته ، يستمد صدقه من بنائه الخاص ، يوقظ فى القارىء حاسة استمداد الواقع والتنظير به دون أن يكون هذا الواقع معتمدها الوحيد للوجود .

ويمكن أن نقول هنا أن هذه التفرقة لم تكن واضحة عند المؤلفين القدماء ، وهى فى قصص الحب وأخباره أقل وضوحا ، حيث نظر إلى الحب على أنه عاطفة غامضة تبرر كل شىء ويصدق فيها كل قول ، ويمكن أن تحدث فيها وبسببها الأعاجيب . ولقد تكاثر العشاق العرب وتكاثرت أخبارهم وقصصهم حتى اختفت المعالم واختلطت الحدود بين النوعين ، وكثيرا ماتحول الخبر الساذج الوجيز إلى قصة مركبة ممتدة المراحل ، ومع هذا تستمر روايتها فى شكل خبر محدد السند .

هذا جانب من مشكلات القصة التراثية بشكل عام تأخذ منه قصص الحب نصيبا وافرًا . وهناك مشكلات أخرى تتعلق بالدلالات والبناء الفنى بشكل عام ، وليس هاهنا مجال التوسع فيها ، ولكننا نشير إليها إشارة إجمالية . ولنسلم مبدئيا بأن هناك دافعا غريزيا قويا يشد الانسان إلى سماع القصص والتأثر بها ، ومهما اختلفت وجهة القصة من رعاية للواقع وحفاظ على المنطق فى اطار من الممكن والمحتمل ، أو تجاوز لهذا الواقع واقتحام عوالم المستحيل مما لا يمكن

تصوره ، فإنها ستبقى محببة إلى النفس الانسانية ، بل قد تستجيب النفس – فى بعض العصور وبعض المستويات العقلية والاجتماعية – لما هو أقرب إلى الخرافة وأبعد عن العالم الواقعى ، كإعجاب الطبقات الشعبية بقصص تجرى أحداثها فى قصور الملوك مثلا ، وكذلك قصص الجن والسحرة ، وقد يتسرب شىء من ذلك إلى القصص العاطفية فنجد قصصا عن حب طرفاه جنية وإنسى أو العكس ، وقصصا تجرى بين عشاق من الجن ، كما نجد قصصا أبطالها من الأمم البائدة كطسم وجديس وغيرهما ، والطريف أن أبطال هذه القصص يتكلمون العربية التى عرفناها فى العصور الاسلامية ، وينظمون الشعر على أبحره المعروفة ونظام قوافيه .

* فجعفر السراج يروى لنا أخبارا وقصصا عن دبّ منقطع مع قطيع من الوحش لعبادة الله ، يلبى حاجة أحد الزهاد إلى ماء للوضوء ، وإذ يصح لديه ذلك فإنه يصح لديه كذلك قصة الغراب أو الزاغ العاشق ، التى يزعم راويتها أن القاضى يحيى بن أكثم كان طرفا فيها ،إذ كان لديه طائر له رأس إنسان ، وهو من سرته إلى أسفله خلقة زاغ ، وأن هذا الغراب أنشد :

أنا الزاغ أبو عجـوه أنا ابن الليث واللبوه

إلى آخر الأبيات الطريفة ، بل ان هذا الغراب العجيب أنشد أبياتا فى الغزل أيضا !! بل يروى السراج بسنده عن سليمان بن عبد الملك عن عطاء فى قوله تعالى : ﴿ولقد همت به وهم بها﴾ قال : كان لها بلبل فى قفص ، إذا نظر إليها صفر لها ، فلما رآها قد دعت يوسف عليه السلام ، إلى نفسها ، ناداه بالعبرانية : يا يوسف لا تزن ، فإن الطير فينا إذا زنى تناثر ريشه !! وقد مر بنا حديث النخلة العاشقة ، وهى قصة الحب الخير الذى يغلب عليه الأسى للفراق ، وهو ما يناسب شجرة وطنية طيبة كالنخلة ، وللحب وجهه الآخر تعبر عنه قصة الجنى العاشق :

« عن سالم بن عبد الله بن عمر ، أخبرنى واقد أخى : أن جنيا عشق جارية لا أعلمه الاّ قال : منهم أو من آل عمر ، قال : وإذا فى دارهم ديك . قال فكلما جاءها صاح الديك ، فهرب ، فتمثل فى صورة إنسان ، ثم خرج حتى لقى شيطانا من الانس ، فقال : اذهب فاشتر لى ديك بنى فلان بأى ثمن كان ، فائتنى به فى مكان كذا ؛ فذهب الرجل فأغلى لهم فى الديك ، فباعوه ، فلما رآه الديك صاح ، فهرب ، وهو يقول : اخنقه ، فخنقه حتى صرع الديك ، فجاءه فحك رأسه ، فلم يلبثوا الاّ يسيرا حتى صرعت الجارية[1] .

(١) مصارع العشاق جـ ٢ ص ٩٨ ، ٩٩ وانظر أيضا الصفحات ٨٥ ، ٨٧ من الجزء الأول و ١٥٥ من الجزء الثانى .

* ويعكس « ذم الهوى » دراية واسعة بقصص الحب المتوارثة عند الأمم وأهل الديانات الأخرى ، فبالاضافة إلى قصص هاروت وماروت ، والقصص الوعظية الاسرائيلية ، نجد قصصا عن الرهبان وأهل الديارات وقصصا عن بعض الفرس مثل ما ينسب إلى بهرام جور ، وما كان بين أردشير وبنت ملك السريانية[1] ، وهذه الأخيرة نجدها فى « مروج الذهب » وتحدد شخصية بطلها ، أو ضحيتها وهو الضيزن بن معاوية ، ونسبه يعود إلى الساطرون بن أسيطرون ملك السريانيين[2] وحين يعقب المسعودى على هذا الحادث – القصة ، بقوله : « والشعر فى هذه القصة كثير » فإنه فى الحقيقة يخرجها من اطار التاريخ إلى مجال الفن القصصى . بل نجد فى « مروج الذهب » قصصا مثيرة متناثرة لا تعنينا هنا فى ذاتها ، وانما تعنينا دلالتها من امتزاج أو حدوث تماس واضح بين التاريخ والفن القصصى ، بحيث كان يقدم التاريخ فى شكل أحداث قصصية لا تكتفى بالوقائع المجردة ، وإنما تحيطها باجواء تصويرية من الدوافع والانفعالات والمفاجئات والنتائج غير المتوقعة ، كما تقدم القصص مسندة إلى أسماء تاريخية ، وأماكن معلومة ، ومرتبطة بحوادث مشهورة ، بحيث تلتبس عند القارئ بالتاريخ . وهذه قصة « عمليق » التى أشار إليها أكثر من كاتب فى ثنايا الحديث عن الحب وأفاعيله بالنفوس ، وقد كان عمليق – فيما يروى المسعودى – أو عملوق كما آثر أن يكتبها ، ملكا لطسم ، ظلوما غشوما ، لا ينهاه شىء عن هواه ، وقد قهر جديس دهرا طويلا ، وحدث أن احتكم إليه زوجان من جديس فى اختلافهما على ولد أنجباه ، فلم يقض الملك الظالم لأحدهما بضم الغلام ، بل ألحقه بخدمته ، مما استدعى هجاء المرأة للملك ونعته بالظلم وسوء الحكومة ، فلما بلغ قولها الملك غضب ، وأمر ألا تتزوج امرأة من جديس فترف إلى زوجها حتى تحمل إليه ، فيفترعها قبل زوجها . وظل هذا الذل مضروبا على جديس حتى تزوجت عفيرة ، وقيل الشموس ، بنت غفار الجديسى . وتكتمل القصة بمشهد مثير حقا ، فيه هذا الاحتدام الذى نشهده فى المواقف الفاصلة فى المسرحيات الكلاسيكية ، فقد سيقت الفتاة إلى عملوق بين أغنيات تقر هذا الواقع العجيب ، فلما دخلت عفيرة على عملوق افترعها وخلى سبيلها ، فخرجت على قومها فى دمائها شاقة جيبها عن قبلها ودبرها وهى تقول :

لا أحد أذل من جديس أهكذا يفعل بالعروس ؟

وأبت العروس الضحية أن تمضى إلى زوجها ، وألقت فى قومها قصيدة مثيرة مطلعها :

أيصلح ما يؤتى إلى فتياتكم وأنتم رجال فيكم عدد الرمل

---

(١) ذم الهوى ص ٣٠٧ ، ٣٤٧ .

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤٧ - ٢٤٩ .

وفيها تشهر بعجز قومها ورضاهم بالهوان ، وتحرضهم على القتال :

فلو اننا كنا الرجال وكنتم نساء لكنا لا نقر على الذل

ويتحمس الأسود أخوها ، ويدعو جديسا للثورة على مظالم طسم والقضاء على عملوق ، ويقترح خطة – حيلة – حيث يدعو وجوه طسم إلى وليمة ، ثم يثب قومه عليهم ، ولكن عفيرة – وهى الضحية الماثلة – تأبى هذا الغدر ، وتريد أن يثأر لها قومها وينتصفوا لها من عدوها بمنازلته فى قتال مواجهة صريحة ، غير أن القوم المذعورين لم يأخذوا بقولها ، وقامت الوليمة بدور الشرك ، وقضى على عملوق وقومه ، وتحررت جديس ليس من طغيان عملوق فحسب ، بل فازت بحريتها كاملة[1]

وخلاصة القول هنا أن صلة العرب بالفن القصصى قديمة جدا ، نجدها فى أساطيرهم عن الأصنام والكواكب ، كما حكى عن أساف ونائلة وغيرهما ، ونجدها فى سردهم لتاريخ القبائل البائدة منهم ، كما رأينا طرفا من تصوير الصراع بين طسم وجديس ، ولم تكن قصص الأمم الأخرى مجهولة للقاص العربى فى العصر الجاهلى ، ومعارضة النضر بن الحارث للرسول فى تلاوته للقرآن ، برواية قصص رستم واسفنديار تحمل دلالة التأثير الواسع للقصة ، ومعرفة العرب بطرف من أساطير وقصص الأمم الأخرى .

وقد استمرت القصص قبل الإسلام إلى ما بعده ، محاولة أحيانا أن تأخذ طابعا دينيا ، إذ يغلب على الظن أنها استمرت لأسباب دينية ، ولم يكن مفهومها يختلف عن مفهوم الوعظ الدينى[2] وسيظهر هذا بوضوح ليس فى قصص العذريين وحدهم ، وإنما فى قصص المتصوفة والزهاد وكل من قاوم الهوى أو خضع له . ومن الحق ما لاحظه بعض الباحثين ترتيبا على ملاحظة الجاحظ حول مانسب إلى وهب بن منبه وكعب الأحبار من قصص كثير ، أن المسلمين قد زادوا من شأن هذين الرّاويتين مع تقدم الزمن ،كما استغل بروز شخصية ابن عباس المبكر ، وهو من بيت النبوة ، فى مجالى التفسير والقصص ، حتى نسب إليه مالا يوافق عمره[3]

ولقد تجاهل التاريخ الأدبى القصص العربية القديمة ، وإلى عصر المقامات ، والسبب – كما طرحه فاروق خورشيد – أن هذه القصص وان رويت بسندها – أو بعضها على الأقل – فإنها رويت بالمعنى دون اللفظ ، ومن ثم فإنها ليست كاملة النسبة لمن حدثت لهم ، إنها من

---

(١) السابق ص ٢٦٨ .

(٢) القصص والقصاص فى الأدب الإسلامى ٢٦ – ٣١ .

(٣) السابق ص ١٠٦ ، ١٢٥ .

باب أولى من صنع راويتها[1] وباستطاعتنا أن نضيف أمرا قد يعين على تأكيد اعتبار القصة العربية المأثورة ، ويضع قصص الحب فى إطارها الصحيح ، وهو أننا سنعيد الأخبار إلى راويتها إذ يروى الخبر بلفظه ، ولكننا نؤثر أن نحتفظ بالقصص منسوبة إلى من نقلها من الرواية الشفهية إلى التسجيل الكتابى ، لا نعنى بذلك أنها تحمل طوابع أسلوبه فى الصياغة اللغوية فحسب ، بل أسلوبه فى تشكيل المادة القصصية ايضا ، وهو ما يتجاوز القول بأن هذا النوع من الانتقاء الخاص ، وإن كنا لا ننفيه ، ولكنه ليس كافيا كحجة لترادف قصص الكتاب الواحد على وتيرة واحدة فى تعقيد الحادثة وتحديد غايتها النفسية أو الخلقية . وسيكون بهذا الذى نؤثر من حقنا أن نشير إلى خصائص امتاز بها السراج ، وأخرى اثرها ابن الجوزى ، أو التنوخى أو غيرهم أيضا .

التنوخى والفرج بعد الشدة :

يعقد القاضى التنوخى بابا كاملا فى كتابه « الفرج بعد الشدة » تحت عنوان : « فيمن نالته شدة فى هواه ، فكشفها الله عنه وملكه من يهواه[2] » والكتاب على طوله محكوم فى اختياراته من الأخبار والقصص بهذا المغزى الأخلاقى : شدة يعقبها فرج ، وهذا المغزى الأخلاقى يتحكم بدوره فى شكل الخبر أو القصة ، التى تبدأ بذكر مظاهر الأزمة ، وأسبابها ، ثم ما ترتب عليها من ضيق شديد ، لا يلبث أن يتبدد فى لحظة غير متوقعة ، تأتى بعد الصبر والمكابدة وايثار التضحية ، وقد يكون هذا الفرج ثمرة طبيعية للمعاناة والصبر على المكاره ، ففيه تتجلى الرابطة بين السبب والنتيجة ، وقد يكون هذا الفرج وليد مصادفة غير متوقعة ، فينال الصابرون جزاء صبرهم دون ابداء من أين جاءهم هذا الجزاء . وفى هذا الباب الذى عقده التنوخى لقصص المحبين وما نالهم من الشدائد ، وكيف فازوا بلذة جمع الشمل بعد الصبر على المكروه ، يقدم مادته فى إطار اخبارى ، حيث تسند القصة لراويتها ، بل قد يذكر اسم من أجاز له روايتها ان كان قد سجلها ابتداء دون أن يسبقه أحد إلى ذلك ، وفى حدود مائة صفحة يقدم ستا وعشرين قصة ، نصفها عن علاقات العشق التى يمثل السيد فيها طرفا ، وتمثل الجارية أو القينة الطرف الآخر ، وعلى الرغم من أن القينة مملوكة لسيدها ، فإنه عادة يلاقى الهوان والمسغبة معها ، وليس بسببها ، مما يضطره إلى بيعها ، ثم يصادف ، كما تصادف هى ، ألوانا من البلاء وآلام الفراق إلى أن يجتمع شملهما مرة أخرى . أما القصص الأخرى فإنها اعتمدت على أسماء مشهورة ، ولكنه تجنب قصص العذريين باستثناء قصة عن قيس ولبنى ، وأخرى عن جميل وبثينة ، غير أنه أضاف إلى قائمة العذريين المألوفة لنا فى كتب الأدب اسما جديدا

---

(١) الرواية العربية – عصر التجميع ص ٢٠ وما بعدها

(٢) هو الفصل الثالث عشر – الجزء الرابع .

لا يجاريهم شهرة ، وهو « أبو المسهر » أو الجعد بن مهجع العذرى الذى يروى لنا عمر بن أبى ربيعة طرفا من قصته الغريبة .

وقد أثرت قصص هذا الكتاب وأخباره فى كتب أخرى من تلك التى نتلمس فيها قصص الحب وأخباره عند العرب ، فقصة أبى المسهر السالفة الذكر نجدها فى مصارع العشاق (جـ ١ ص ٩٢) وفى أخبار النساء (ص ١٩٩) ، وقصة حبيب، الكهرمانة الذى أقسم أن ينسل يده أربعين مرة إذا أكل طعاما معينا نجدها فى ذم الهوى (ص ٣٦٣) وفى تزين الأسواق (ص ٣٥٥) كما نجد غير هاتين القصتين أيضا ، ونكتفى بهذه الاشارة .

وليس اهتمام القاضى التنوخى بأمور العشق محصورًا فى هذاالباب ، ولكن خصائص اختياره وأسلوبه فى صياغة القصة يتحقق فيه حيث تترادف القصص على هدف واحد هو الفرج بعد الشدة .ولكننا نجد له فى أماكن أخرى من كتابه بعض الاشارات المهمة بالنسبة لما نحن بصدده ، مثل هذه القصة التى ينقلها عن كتاب الوزراء لمحمد بن عبدوس ، وخلاصتها أن رقعة بدون توقيع قد وصلت إلى أحمد بن أبى خالد (الأحول – وزير المأمون) تخبره أن حظية من أعز جواريه عنده ، تعشق ، وتوطىء فراشه غيره ، وتستشهد الرقعة بخادمين كانا ثقتين عنده !! ويعترف الخادمان بعد تعذيب وتهديد بأمر خيانة الجارية لسيدها ، وينهار السيد مهموما ، ويلتمس العزاء عند بعض أصدقائه يستشيره ، فيرى أن يواجه الخادمين كلا على انفراد ، وبعد حوار طويل ، يعترف كل منهما على حدة بأن امرأة أبى خالد قد رشته بألف دينار ، ودست الرقعة فى طريق روجها لينصرف عن الجارية إليها ، وطلبت من الخادم ألا يعترف بجريمة الجارية إلا بعد التهديد والوعيد ليكون ذلك أدعى إلى التصديق !! ويحب رواى الخبر – أو لنقل : مؤلف القصة المستمدة من الواقع – أن يجمع الكل على مشاعر الخير ومنابذة الشر ، فتعترف الزوجة – فى نفس اللحظة – بأن الرقعة كانت من فعلها غيرة على زوجها من الجارية[1] !!

والعلاقة بين الزوجة والمحظية أو الجارية من أعقد العلاقات بين النساء ، وبين النساء والرجال ، أو الرجل ، فالجارية تختار وتؤثر لمزاياها الواضحة ، ولكن الزوجة التى غالبا ما تكون قد فقدت تلك المزايا ، ترى أن لها حقوقا ثابتة لا يصح أن يزحف عليها نفوذ الجارية أو الجوارى . وقد ألمحنا إلى هذه العلاقة المضطربة من قبل .

وهذه قصة أخرى بطلها اسحاق المصعبى يرويها بعض ندمائه ، فقد كان المصعبى رئيس شرطة بغداد ، وكان شرس الأخلاق سريع القتل ، وذات ليلة استدعى نديمه هذا فأقبل يتوجس الشر لغرابة الاستدعاء فى هذا الوقت من الليل ، وما يكاد يدخل بيت المصعبى حتى يسمع

(١) الفرج بعد الشدة جـ ١ ص ٢٤٣ .

بكاء امرأة فى الدهليز ، والمصعبى واقف متجهم قد بدا الشر على وجهه . بعد هذا الوصف العام للشخصيات وبيئة الحدث ، تتضح الأزمة ، فقد رفعت إلى المصعبى تقارير العسس فى أنحاء المدينة ، وفى جميعها ذكر كبسات وقعت على نساء وجدن على فساد ، من بنات الوزراء ، والأمراء ، والأجلاء ، الذين بادوا ، أو ذهبت مراتبهم . وفى عصرهم ، كما فى عصرنا ، فإنه حين تضبط نساء على هذا القدر من الخطر فإن الاجراءات العادية تتوقف ، ويستر الأمر ، إلى أن تستأذن « الجهات العليا » ، فى أمرهن ، وهذا ما كان مطلوبا من رئيس الشرطة فى تلك الليلة . والطريف الجديد فى هذه القصة الحادثة انها اتخذت منحى شخصيا إنسانيا عميقا ، فلم تكن أزمة رئيس الشرطة ماذا يفعل بهؤلاء النسوة من بنات علية القوم ، ولكن الأزمة كانت كما عبر لنديمه راوية القصة : « هؤلاء الناس الذين ورد ذكر حال بناتهم ، كلهم كانوا أجل منى ، أو مثلى ، وقد أفضى بهم الدهر فى حرمهم إلى ما قد سمعت ، وقد وقع لى أن بناتى بعدى سيبلغن هذا المبلغ ، وقد جمعتهن — وهن خمس — فى هذه الحجرة لأقتلهن الساعة ، واستريح ، ثم ادركتنى رقة البشرية ، والخوف من الله تعالى ، فأردت أن أشاورك فى إمضاء الرأى ، أو شىء تشير به علىّ فيهن » .

هذه هى الشدة ، ومن الواضح أن الرجل ممزق بين عاطفتين ، وقد جاء الفرج فى اقتراح نديمه أن يزوجهن الليلة من ابناء أحد القادة ، أما اللاتى ضبطن الليلة فقد أخطأ آباؤهن فى تدبيرهن ، حيث خلفوا عليهن النعم ، ولم يحفظوهن بالزواج ، فخلون بأنفسهن ، ونعمهن ، ففسدن ، ولو كانوا جعلوهن فى أعناق الأكفاء ، ما جرى منهن هذا[1] .

ونتوقف الآن عند هذا الباب الذى خصص للمكروبين من العشاق الذين واتاهم الفرج فانتهى الحرمان إلى الوئام بنيل المحبوب ، ولابد أن تلفتنا هذه النسبة العالية من قصص الحب التى تمثل الجارية أو القينة فيها دور المحبوبة ، ومما هو جدير بالتأمل أن الحب دائما هو رجل حر ، هو مالك الجارية ، ولكنه يواجه العسر الشديد للثمن الباهظ الذى دفعه ثمنا لها ، أو لأن شغفه بها يقعد به عن الكسب ، أو أن نفقتها تتجاوز دخله ، وفى كل الأحوال فإنه يتمسك بها وتتمسك بالحياة معه رغم مايعانيان من مسغبة ، وقد يصل الحال إلى الجوع ، أو العرى ، حتى يتبادلا قميصا واحدا لا يملكان غيره ، ثم تقترح عليه أن يبيعها ، ليتجاوز أزمته بثمنها ، وقد يقترح هو عليها أن يبيعها لتعيش فى رغد من العيش عند سيدها الجديد ، وليواجه هو حرمانه منها .يحدث فى كل مرة أن يقبل المشترى ، ويرى الجارية ، ويسمع غناءها ، فيعجب بجمالها وأدبها ، ثم يذهل لروعة صوتها ،ويوافق على الثمن الباهظ المطلوب فيها . وهنا يحدث واحد من أمرين : أن يضعف السيد العاشق أمام لحظة الفراق بالبيع ، فيرفض اقرار

(١) الفرج بعد الشدة جـ ٤ ص ٥ .

البيع فجأة ، ويعلن أمام شهود مجلس البيع أنه أعتق الجارية ،وأن مهرها حريتها ، وأنه يطلب من هؤلاء السادة أن يزوجوه منها . واما أن يمضى البيع ويقبض الثمن ، ولكنه لا يكاد يغادر المجلس ، ويتدبر قيمة ما فقد ، حتى يتملكه الحزن ، ويهيم على وجهه رافضا أن يدخل بيته وقد خلا من محبوبته ، وهنا يتعلق أمله فى أن يقبل المشترى استرداد نقوده واعادة الجارية ، فى كل مرة يحدث أن يكون المشترى سيدًا فاضلا من علية القوم ، وأن يرق للفتى العاشق ويقبل الرجوع عن الصفقة ، بغير تحفظ ، أو بشرط أن يأذن له فى سماعها من وراء الستارة ، ويحدث فى كل مرة يرفض المالك الجديد استرداد نقوده ، ويتركها هدية للجارية ، بل قد يعطيها كل ما كان قد أعد لها فى بيتها الجديد ، وتكتمل هذه الصورة المثالية لجهاد المحبين إن يؤكد السيد الجديد للسيد القديم ، وهو يعيد إليه محبوبته ، أنه لم يطأها ، وهذا ابن أبى حامد صاحب بيت المال يحسن إلى صيرفى صغير ويعيد إليه جاريته قائلا : « يابنى ، إن مثلى لا يطأ قبل الاستبراء ، والله ما وقعت عينى على الجارية منذ اشتريت إلاّ الساعة ، وقد وهبتها لك فخذها ، وخذ دنانيرك ، بارك الله لك فيها » ، وحيث عرف أبو حامد من الشاب العاشق أنه صيرفى كان رأس ماله ألف دينار ، وأنه بعد أن اشترى الجارية تشاغل عن لزوم الدكان حتى بطل كسبه وراح ينفق عليها من رأس المال مما لا يحتمله حاله حتى أوشك أن يفقده ، « فلما منعتها ساءت أخلاقها ،ونغصت عيشتى ، فقلت أبيعها ، وأدبر ثمنها فيما اختل من حالى ، وتستقيم عيشتى واستريح من أذاها ، وأتصبر على فراقها ، ولم أعلم أنه يلحقنى هذا الأمر العظيم . وقد آثرت الآن الفقر ، وأن تحصل الجارية عندى ، أو أن أموت ، فهو أسهل على مما أنا فيه » ، فإن أبا حامد لا يكتفى برد الجارية واهداء ثمنها إليه ،بل يهبها ألف درهم كانت قد أعدت لكسوتها ،ويخاطبها قائلا : ولك علىّ ألف درهم فى كل سنة ، يجىء مولاك فيأخذها لك ، إذا شكرك ورضى طريقتك[1] .

وقد آثرنا أن نقتبس من هذه القصة أكثر من غيرها لأنها انفردت بأمر جوهرى ، صحيح أنها تشارك القصص الأخرى فى الخصائص العامة التى قدمنا ، والبكاء حبا بين يدى السيد الجديد لم يكن مما يخجل منه السيد القديم فى كل القصص ، وتهافته على لاسترداد جاريته المحبوبة أو حتى مشاهدتها فى دارها الجديدة ولو خلسة أو بالتنكر ، وقد كانت الجارية – كما أسلفنا – تبادل سيدها حبا بحب ، وتعتبر خروجها عن ملك يمينه نكبة عليها وتحطيما لحياتها ، ولكنها تحتملها من أجله ، أو يحتملها هو من أجلها . أما الجارية فى قصة الصيرفى وابن أبى حامد فإن فيها قسوة وأثرة ، لم تعبأ بثروة سيدها التى تذوب أمام الحاح مطالبها ، مما دفع السيد إلى أن يعتبر بيعها راحة من أذاها وانقاذا لوضعه المالى ، ولكنه اكتشف بعد فوات

(١) الفرج بعد الشدة جـ ٤ ص ٣٤٩ وما بعدها .

الأوان أن الحب أقوى من راحة البال واتساع المال ، فقال كلمته الهائلة : « وقد آثرت الآن الفقر ، وأن تحصل الجارية عندى ، أو أن أموت » !! فهنا جرعة من الواقعية غير مألوفة فى هذا اللون من القصص ، ظهرت أصلا فى رسم المعالم النفسية لهذه الجارية ، بكل ما فيها من جاذبية وشر ، دون أن تضفى عليها الجمال الحالم الأليف الذى يلاحق أوصاف الجوارى فى مثل تلك المواقف .

ولا شك أن هذا اللون من قصص الحب ، ونعنى الذى طرفاه جارية وسيدها ، يدعو للتساؤل ، فقد عرفنا وسنعرف قصصا عن حب بين جارية وعبدرقيق مثلها ، وقد يبلغان ذروة النقاء العاطفى ، وقد ينتحران عشقا ويأسا من حياتهما ، والأمر هنا يختلف كثيرا ، ولعل اختيار هذه القصص مع محكوميته بالهدف العام للكتاب ، قد أراد أن يردّ على النزعة الهجائية للجوارى والقيان فى كتب وقصص أخرى نجد بدايتها عند الجاحظ فى رسائله عن الجوارى والغلمان ، وعن القيان ، وفى المحاسن والأضداد الذى ينسب إليه . ولعل قصة حب بين جارية وسيدها تعبر عن واقع جديد كان يفرض نفسه اجتماعيا ، حيث كثر عتق الجوارى والزواج منهن ، وهذا الواقع يعكس أوضاع الطبقة الوسطى ونظرتها إلى الحب ، فهذا السيد الذى يعتق جاريته ويعلن رغبته فى زواجها ، كان باستطاعته أن ينال منها كل ما يشتهى دون أن يفقد ملكيتها ، لكنه وقد بلغ به الحب ذروة السمو الشعورى ، أصبح يرى أن عاطفة الحب لا يصح أن تشاب بالعبودية ، وأنها بطبيعتها حرة لا تقاد ولا تقهر ، وأن ملك اليمين يتنافى بالطبيعة مع ما ينبغى أن يكون من مشاعر الوفاق على أساس المساواة بين العاشقين ، ان لم تكن كفة المعشوق هى الراجحة . ولدينا عديد من الأخبار عن جوارى الخلفاء ، كانت احداهن تغاضب الخليفة وتقاطع مجلسه ، وتنام منفردة ، حتى يتوسل إليها ببعض القضاة أو الشعراء الظرفاء ليقنعها بأن تذهب إليه أو تسمح له بالقدوم إليها !! واتماما لهذا الملمح الذى نراه ، فان المالك الجديد للجارية يكون عادة نبيلاها شميا يعيش فى البصرة وقصد بغداد ليسمع الغناء ويأخذ ارزاقه من الخليفة ، أو حاكم مدينة له شرف وشهرة (عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى أمير البصرة) ، فيأبى أن يفرق بين محبين ، فيعيد الجارية إلى صاحبها ، وقد يكفلهما أيضا ليرى ثمرة احسانه حاضرة ، بل ان هذا السيد قد يكون الخليفة نفسه ، وقد نسب إلى المقتدر شىء من ذلك ، أو جعفر البرمكى ، يزاول الأمر بنفسه أو يستعين باسحاق الموصلى ، بل قد يجتمع اكرامان ، يبدؤه جعفر ويقره ويزيده الرشيد . ولم يكن غريبا أن يتدخل الخليفة لانجاح قصة حب بين اثنين من رعيته ، أو من عبيده ، تحدثت الأخبار بهذا ، كما تردد صداه فى القصص .

وحين نغادر هذه القصص العديدة التى تجرى بين القينة أو الجارية وسيدها إلى بقية القصص التى قام عليها هذا الباب من كتاب « الفرج بعد الشدة » نجد طابع المعاناة يختلف ، حين

يكون الطرفان من الأحرار ، فحينا يكون المانع هو الفارق فى الثروة ، كمن أحب ابنة عمه وحيل بينه وبينها لأنه ليس كفؤا لها ، أو لأن العاشق قد عشق امرأة متزوجة ، فلقد أحب الاشتر جيداء المتزوجة ، وأرسلت الزوجة العاشقة رجلا فى ثيابها – هو صديق عشيقها – فى خيمتها ليوهم الزوج المخدوع أنها لم تبارح ، والطريف أن يحدث نوع من التعامل بين الزوج وامرأته الزائفة دون أن يفطن للتغيير ، ويقتص صانع القصة من جيداء ، ويجازى الرجل فى ثياب المرأة على مغامرته ، فيجعله يقضى ليلة سامرة فى صحبة أخت جيداء وفى حماية خبائها . وفى قصة أخرى أن رجلا من بنى أسد علق امرأة من همدان بالكوفة ، وشاع أمرهما ، فوضع قوم المرأة عليه عيونا ، حتى قيل لهم انه دخل عندها ، فحين أحست المرأة بأنهم أحاطوا بدارها وعلى وشك اقتحامها ، وضعت عشيقها تحت ثيابها ،أو كما تقول الرواية « فأدخلته بينها وبين القميص » وكانت بادنة ، وأمرته أن يلتصق بها فلم يكتشفه أحد ممن انطلقوا فى دارها يفتشون عنه ، وقد استوجب هذا اعتذارهم لها . والطريف حقا أن يضع القاضى التنوخى هاتين القصتين تحت عنوان الفرج بعد الشدة ، وهذا له فى ذاته دلالة فنية ، حيث يتم المأزق وتضيق حلقة الأزمة ، ثم يأتى الحل فى النهاية وبعد اليأس منه ، أما الدلالة الأخلاقية أو الدينية فقد تخلفت فى مثل هذه القصص ، فلم يكن أبطالها من الزهاد أو الصالحين ، كانوا مجرد عشاق ، يلتمسون الحيلة – مهما كانت – لبلوغ مآربهم .

نموذج من قصص الفرج بعد الشدة :

ونختار الآن واحدة من هذه القصص ، آثرناها لبعض ما تتميز به ، فصنعة القصاص فيها واضحة ، حيث تتكرر الأزمات ، اثراء لعنصر التشويق ورغبة فى إطالة القصة ،وهى تتحرك فى أكثر من بيئة : فى السوق ، وفى منازل التجار ، وقصر الخليفة ، وتكشف جوانب مهمة من هذه البيئات كأساليب التعامل فيما بينها ، ونظرتها إلى الطبقات الأخرى ، فكل شىء يجرى فى قصر الخلافة ، ويحتفظ لشخص الخليفة بمهابة المظهر ، فى حين تمضى حيل النساء بكل ما تريد ، وفى القصة يصير زواج الرجل الحر ، التاجر الميسور من قهرمانة القصر أو جارية من جواريه أمنية يرتكب فى سبيلها الشطط ويواجه الخطر ، ولعل هذا يصور لنا بعض طبائع العصر العباسى الثانى حيث زاد نفوذ العنصر الأجنبى حول الخلافة سواء من الجند وقادتهم ، أو الجوارى والقهرمانات المشرفات عليهن . ورغم أن الحب هو صانع عقدة هذه القصة فإنه بقى حبا نظيفا إلى آخر القصة ، ربما لأنه يجرى فى قصر الخلافة أو حوله ، والتمس صانع القصة – أو مطورها ان كان لها جانب من الحقيقة – التمس مجالا آخر ركز فيه عناصر التشويق والاثارة .

* * *

أقسم أن يغسل يده أربعين مرة إذا أكل زيرباجة

حدثنى أبو الفرج أحمد بن إبراهيم الفقيه الحنفى المعروف بابن النرسى من أهل باب الشام ببغداد ، وقد كان خلف أبا الحسن على بن أبى طالب ابن البهلول التنوخى على القضاء بهيت ، وما علمته الاّ ثقة ، قال : سمعت فلانا التاجر ، يحدّث أبى – وأسمى التاجر ، وأنسيته أنا ، قال :

حضرت عند صديق لى من البزازين – وكان مشهورا – فى دعوة ،فقدّم فى جملة طعامه ، زيرباجة[1] ، ولم يأكلها ، فامتنعنا من أكلها .

فقال : أحبّ أن تأكلوا منها ، وتعفونى من أكلها ، فلم ندعه حتىٰ أكل .

فلمّا غسلنا أيدينا ، انفرد يغسل يده ، ووقف غلام يعدّ عليه الغسل ، حتى قال له : قد غسلت يدك أربعين مرّة ، فقطع الغسل .

فقلنا له : ما سبب هذا ؟ فامتنع ، فألححنا عليه .

فقال : مات أبى وسنّى نحوٌ من عشرين سنة ، وخلّف علّى حالا صغيرة ، وأوصانى قبل موته بقضاء ديون عليه ، وملازمة السوق ، وأن أكون أوّل داخل إليه ، وآخر خارج منه ، وأن أحفظ مالى .

فلما مات ، قضيت دينه وحفظت ما خلّفه لى ، ولزمت الدكان ، فرأيت فى ذلك منافع كثيرة . فبينما أنا جالس يوما ولم يتكامل السوق ، وإذا بامرأة راكبة على حمار ، وعلى كفله منديل دبيقى ، وخادم يمسك بالعنان ، فنزلت عندى .

فأكرمتها ، ووثبت إليها ، وسألتها عن حاجتها ، فذكرت ثيابا .

فسمعت – والله – نغمة ، ما سمعت قط أحسن منها ، ورأيت وجها لم أر مثله ، فذهب عنّى عقلى ، وعشقتها فى الحال ..

فقلت لها : تصبرين حتى يتكامل السوق ، وآخذ لك ما تريدين ، ففعلت ، وأخذت تحدثنى ، وأنا فى الموت عشقا لها .

وخرج الناس ، فأخذت لها ما أرادت ، فجمعته ، وركبت ولم تخاطبنى فى ثمنه بحرف واحد ، وكان ما قيمته خمسة آلاف درهم .

---

(١) الزيرباجة : طعام يصنع من اللحم ، ويطبخ بالدارصينى والخل ، ويضاف إليه الحمص والكسبرة والفلفل والمصطكى واللوز المقشور ، ويقطر عليه ماء الورد .

فلما غابت عنّى أفقت ، وأحسست بالفقر ، فقلت : محتالة ، خدعتنى بحسن وجهها ، ورأتنى حدثا ، فاستغرتنى ، ولم أكن سألتها عن منزلها ، ولا طالبتها بالثمن ، لدهشتى بها .

فكتمت خبرى لئلا أفتضح ، وأتعجل المكروه ، وعوّلت على غلق دكانى ، وبيع كل ما فيها ، وأوفى الناس ثمن متاعهم ، وأجلس فى بيتى مقتصرا على غلّة يسيرة من عقار كان خلّفه لى أبى .

فلما كان بعد أسبوع ، إذا بها قد بكرتنى ، ونزلت عندى ، فحين رأيتها أنسيت ما كنت فيه وقمت لها .

فقالت : يا فتى ، تأخرنا عنك ، وما شككنا أنّا قد روعناك ، وظننت أنّا قد احتلنا عليك .

فقلت : قد رفع الله قدرك عن هذا .

فاستدعت الميزان ، فوفتنى دنانير قدر ما قلت لها عن ثمن المتاع ، وأخرجت تذكرة بمتاع آخر .

فأجلستها أحادثها ، وأتمتع بالنظر إليها إلى أن تكامل السوق ، وقمت ، ودفعت إلى كلّ انسان ما كان له ، وطلبت منهم ما أرادت ، فأعطونى ، فجئتها به ، فأخذته وانصرفت ، ولم تخاطبنى فى ثمنه بحرف .

فلمّا غابت عنى ندمت ، وقلت : المحنة هذه ، أعطتنى خمسة آلاف درهم ، وأخذت منى متاعا بألف دينار ، والآن إن لم أقع لها على خبر ، فليس الاّ الفقر وبيع متاع الدكان ، وما ورثته من عقار . وتطاولت غيبتها عنّى أكثر من شهر وأخذ التجار يشدّدون علّى فى المطالبة ، فعرضت عقارى ، وأشرفت على الهلكة .

فأنا فى ذلك ، وإذا بها قد نزلت عندى ، فحين رأيتها زال عنّى الفكر فى المال ، ونسيت ما كنت فيه ، وأقبلت علّى تحدثنى ، وقالت : هات الطيّار[1] ، فوزنت لى بقيمة المتاع دنانير .

فأخذت أطاولها فى الكلام ، فبسطتنى ، فكدت أموت فرحا وسرورا ، إلى أن قالت : هل لك زوجة ؟

فقلت : لا والله ياسيّدتى ، وما أعرف امرأة قط ، وبكيت .

فقالت : ما لك ؟

قلت : خير ، وهبتها ثم قمت وأخذت بيد الخادم الذى كان معها ، وأخرجت له دنانير كثيرة ، وسألته أن يتوسط الأمر بينى وبين ستّه .

---

(١) الطيار : ميزان توزن به الأشياء الدقيقة كالدنانير .

فضحك ، وقال : انّها هى – والله – أعشق منك لها ، وما بها حاجة إلى ما اشترته منك ، وانّما تجيئك محبة لمطاولتك ، فخاطبها بما تريد ، فإنها تقبله ، وتستغنى عنّى .

فعدت ، وكنت قلت لها : انّى أمضى لأنقد الدنانير ، فلمّا عدت ، قالت : نقدت الدنانير ؟ وضحكت ، وقد كانت رأتنى مع الخادم .

فقلت لها : يا ستّى ، الله ، الله ، فى دمى ، وخاطبتها بما فى نفسى منها ، فأعجبها ذلك ، وقبلت الخطاب أحسن القبول .

وقالت : الخادم يجيئك برسالتى بما تعمل عليه ، وقامت ولم تأخذ منى شيئًا ، فوفيت الناس أموالهم ، وحصلت ربحا واسعا ، واغتممت خوفا من انقطاع السبب بينى وبينها ، ولم أنم ليلتى قلقا وخوفا .

فلما كان بعد أيام جاءنى الخادم ، فأكرمته ، ووهبت له دنانير لها صورة ، وسالته عنها .

فقال : هى – والله – عليلة من شوقها إليك .

فقلت : فاشرح لى أمرها ؟

فقال : هذه صبية ربتها السيدة أم أمير المؤمنين المقتدر بالله ، وهى من أخص جواريها عندها ، وأحظاهن ، وأحبهن إليها .

وإنها اشتهت رؤية الناس ، والدخول والخروج ، فتوصلت حتى صارت القهرمانة ، وصارت تخرج فى الحوائج ، فترى الناس .

وقد – والله – حدثت السيدة بحديثك ، وسألتها أن تزوجها منك ، فقالت : لا أفعل ، أو أرى الرجل ، فإن كان يستحقك ، وإلا لا أدعك واختيارك .

وتحتاج إلى أن تتحيل فى ادخالك إلى الدار[1] بحيلة ، إن تمت وصلت إلى تزويجها ، وإن انكشفت ضربت عنقك ، فما تقول ؟

فقلت : أصبر على هذا .

فقال : إذا كان الليلة ، فاعبر إلى المخرم ، وادخل المسجد الذى بنته السيدة على شاطىء دجلة ، وعلى حائطه الأخير مما يلى دجلة ، اسمها مكتوب بالآجر المقطوع ، فبت فيه .

قال أبو الفرج بن النرسى : وهو المسجد الذى قد سدّ بابه الآن سبكتكين ، الحاجب الكبير ، مولى معزّ الدولة ، المعروف بجاشنكير ، واضافه إلى ميدان داره ، وجعله مصلّى لغلمانه .

---

(١) الدار : دار الخلافة .

قال الرجل : فلما كان قبل المغرب مضيت إلى المخرم ، فصليت فى المسجد العشاءين ، وبت فيه .

فلما كان وقت السحر ، إذا بطيّار[1] لطيف قد قدم ، وخدم قد نزلوا ومعهم صناديق فارغة ، فجعلوها فى المسجد ، وانصرفوا ، وبقى واحد منهم ، فتأملته فإذا هو الواسطة بينى وبينها .

ثم صعدت الجارية واستدعتنى ، فقمت ، وعانقتها ، وقبّلت يدها ، وقبلتنى قبلات كثيرة ، وضمتنى ، وبكيت وبكت .

وتحدثنا ساعة ، ثم أجلستنى فى واحد من الصناديق ، وكان كبيرا ، وأقفلته .

وأقبل الخدم يتراجعون بثياب ، وماء ورد ، وأشياء قد أحضروها من مواضع ، وهى تفرّق فى باقى الصناديق ، وتقفل ، ثم حملت الصناديق فى الطيّار ، وانحدر .

فلحقنى من الندم أمر عظيم ، وقلت : قتلت نفسى لشهوة لعلّها لا تتم ، ولو تمت ما ساوت قتل نفسى ، وأقبلت ابكى ، وأدعو الله عز وجل ، وأتوب ، وأنذر النذور ، إلى أن حملت الصناديق بما فيها ، ليجاز بها فى دار الخليفة ، وحمل صندوقى خادمان أحدهما الواسطة بينى وبينها .

وهى كلما اجتازت بطائفة من الخدم الموكلين بأبواب الحرم ، قالوا : نريد نفتش الصناديق ، فتصيح على بعضهم وتشتم بعضهم ، وتدارى بعضهم .

إلى أن انتهت إلى خادم ظننته رئيس القوم ، فخاطبته بخضوع وذلّة ، فقال لها : لابدّ من فتح الصناديق ، وبدأ بصندوقى فأنزله . فحين أحسست بذلك ذهب عقلى ، وغاب على أمرى ، وبلت فى الصندوق فرقا ، فجرى بولى حتى خرج من خلله .

فقالت : يا أستاذ أهلكتنى ، وأهلكت التجار ، وافسدت علينا متاعا بعشرة ألاف دينار فى الصندوق ما بين ثياب مصّبغات ، وقارورة فيها أربعة أمنان من ماء زمزم ، قد انقلبت وجرت على الثياب ، والساعة تستحيل ألوانها .

فقال : خذى صندوقك ، أنت وهو ، إلى لعنة الله ، ومرّى .

فحمل الخادمان صندوقى ، وأسرعا به ، وتلاحقت الصناديق .

فما بعدنا ساعة حتى سمعتها تقول : ويلاه ، الخليفة ، فعند ذلك متّ وجاءنى ما لم أحتسبه .

فقال لها الخليفة : ويحك يا فلانة ، أى شىء فى صناديقك ؟

---

(١) نوع من القوارب السريعة أو السفن الصغيرة .

فقالت : ثياب للسيدة .

فقال : افتحيها حتى أراها .

فقالت : يامولاى ، الساعة تفتحها ستّنا بين يديك .

فقال : مرّى ، هوذا أجى .

فقالت للخدم : أسرعوا ، ودخلت حجرة ، ففتحت صندوقى ، وقالت : أصعد تلك الدرجة ، ففعلت ، وأخذت بعض ما فى الصناديق ، فجعلته فى صندوقى ، واقفلته .

وجاء المقتدر ، فحملت الصناديق إلى بين يديه ، ثم عادت الىّ ، فطيبت نفسى ، وقدمت لى طعاما وشرابا ، وما يحتاج إليه ، وأقفلت الحجرة ، ومضت .

فلما كان من غد جاءتنى ، فصعدت إلّى ، وقالت : الساعة تجىء السيدة لتراك ، فانظر كيف تكون ؟

فما كان بأسرع من أن جاءت السيدة ، فجلست على كرسى ، وفرقت جواريها ، ولم يبق معها غير واحدة منهن ، ثم أنزلتنى الجارية .

فحين رأيت السيدة قبّلت الأرض ، وقمت فدعوت لها .

فقالت لجاريتها : نعم مااخترت لنفسك هو – والله – كيّس ، عاقل ، ونهضت .

فقامت معها صاحبتى وتبعتها ، وأتت الّى بعد ساعة ، وقالت : أبشر فقد – والله – وعدتنى أن تزوجنى بك ، وما بين أيدينا عقبة الاّ الخروج .

فقلت : يسلّم الله تعالى .

فلما كان من غد حملتنى فى الصندوق ، وخرجت كما دخلت ، وكان الحرص على التفتيش أقل ، وتركت فى المسجد الذى حملت منه فى الصندوق ، وقمت بعد ساعة ، ومضيت إلى منزلى ، وتصدقت ، ووفيت بنذرى .

فلما كان بعد أيام ، جاءنى الخادم برقعتها ، بخطها الذى أعرفه ، وكيس فيه ثلاثة آلاف دينار عينا ، وهى تقول فى رقعتها : أمرتنى السيدة بانفاذ هذا الكيس من مالها إليك ، وقالت : اشتر ثيابا ، ومركوبا ، وغلاما يسعى بين يديك ، وأصلح به ظاهرك ، وتجمل بكل ما تقدر عليه ، وتعال يوم الموكب إلى باب العامة ، وقف حتى تطلب ، وتدخل على الخليفة ، وتتزوّج بحضرته .

فأجبت على الرقعة ، وأخذت الدنانير ، واشتريت منها ما قالوه ، واحتفظت بالباقى .

وركبت بغلتى يوم الموكب إلى باب العامة ، ووقفت ، وجاءنى من استدعانى ، فأدخلنى على المقتدر ، وهو على السرير ، والقضاة ، والهاشميون ، والحشم ، قيام ، فداخلتنى هيبة عظيمة ، فخطب بعض القضاة ، وزوّجنى ، وخرجت .

فلما صرت فى بعض الممرّات ، عدل بى إلى دار عظيمة ، مفروشة بأنواع الفرش الفاخر ، والآلات ، والخدم ، فأجلست ، وتركت وحدى ، وانصرف من أجلسنى .

فجلست يومى لا أرى من أعرف ، وخدم يدخلون ويخرجون ، وطعام عظيم ينقل ، وهم يقولون : الليلة تزف فلانة – اسم زوجتى – إلى زوجها ، ها هنا .

فلما جاء الليل أثر الجوع فىّ ، وأقفلت الأبواب ، وأيست من الجارية ، فبقيت أطوف فى الدار ، إلى أن وقعت على المطبخ ، فإذا قوم طبّاخون جلوس ، فاستطعمت منهم ، فلم يعرفونى ، وظنّوا أنى بعض الوكلاء ، فقدموا إلى زيرباجة ، فأكلت منها ، وغسلت يدى بأشنان[1] كان فى المطبخ ، وأنا مستعجل لئلا يفطن بى ، وظننت أنى قد نقيت من ريحها ، وعدت إلى مكانى .

فلما انتصف الليل إذا بطبول ، وزمور ، والأبواب تفتح ، وصاحبتى قد أهديت إلىّ[2] ، وجاءوا بها فجلوها علّى ، وأنا أقدر أن ذلك فى النوم ، ولا أصدق فرحا له ، وقد كادت مرارتى تنشق فرحًا وسرورًا ، ثم خلوت بها ، وانصرف الناس .

فحين تقدمت إليها وقبلتها ، رفستنى فرمت بى عن المنصّة ، وقالت : أنكرت أن تفلح يا عامّى ، أو تصلح يا سفلة ، وقامت لتخرج .

فتعلّقت بها ، وقبّلت يديها ورجليها ، وقلت : عرّفينى ذنبى ، واعملى بعده ما شئت .

فقالت : ويلك ، تأكل ، ولا تغسل يدك ؟ وأنت تريد أن تختلى بمثلى ؟

فقلت : اسمعى قصتى ، واعملى ما شئت بعد ذلك .

فقالت : قل .

فقصصت عليها القصة ، فلما بلغت أكثرها ، قلت : وعلىّ ، وعلىّ ، وحلفت بايمان مغلظة ، لا أكلت بعد هذا زيرباجة ، إلاّ غسلت يدى أربعين مرة .

---

(١) الأشنان : ويلفظ بكسر أوله أو بضمه ، أعواد صغيرة بيضاء أو صفراء ، تدق وتستعمل فى تنقية الأيدى من الوضر ، ولها إذا بلّت بالماء رغوة مثل رغوة الصابون .

(٢) اهداء العروس إلى بعلها : زفّها إليه .

فأشفقت ، وتبسمت ، وصاحت : يا جوارى ، فجاء مقدار عشر جوار ووصائف فقالت : هاتم[1] شيئا للأكل .

فقدمت إلينا مائدة حسنة ، وألوان فاخرة ، من موائد الخلفاء ، فأكلنا جميعا ، واستدعت شرابا ، فشربنا ، أنا وهى ، وغنى لنا بعض أولئك الوصائف .

وقمنا إلى الفراش ، فدخلت بها ، وإذا هى بكر ، فافتضضتها ، وبت بليلة من ليالى الجنة ، ولم نفترق أسبوعا ،ليلاً ونهارًا ، إلى أن انقضت وليمة الأسبوع .

فلماكان من غد ، قالت لى : إنّ دار الخليفة لاتحتمل المقام فيها أكثر من هذا ، وما تم لأحد أن يدخل فيها بعروس غيرك ، وذلك لعناية السيدة بى ، وقد أعطتنى خمسين ألف دينار ، من عين وورق ، وجوهر ، وقماش ، ولى بخارج القصر أموال وذخائر أضعافها ، وكلها لك ، فاخرج ، وخذ معك مالا ، واشتر لنا دارا حسنة ،عظيمة الاتساع ، يكون فيها بستان حسن ، وتكون كثيرة الحجر ، ولا تضيّق على نفسك ، كما تضيق نفوس التجار ، فانّى ما تعودت أسكن إلاّ فى القصور ، واحذر من أن تبتاع شيئًا ضيقًا ، فلا أسكنه ، وإذا ابتعت الدار ، فعرّفنى ، لأنقل إليك مالى ، وجوارى ، وأنتقل إليك .

فقلت : السمع والطاعة .

فسلمت إلىّ عشرة آلاف دينار ، فأخذتها ، وأتيت إلى دارى ، واعترضت الدور ، حتى ابتعت ما وافق اختيارها ، فكتبت إليها بالخبر ، فنقلت إلىّ تلك النعمة بأسرها ، ومعها ما لم أظن قط أنى أراه ، فضلا عن أنى أملكه ، وأقامت عندى كذا وكذا سنة ، أعيش معها عيش الخلفاء ، وأتّجر فى خلال ذلك ، لأن نفسى لم تسمح لى بترك تلك الصنعة ، وابطال المعيشة ، فتزايد مالى وجاهى ، وولدت لى هؤلاء الشباب ، وأومأ إلى أولاده ، وماتت رحمها الله ، وبقى علىّ مضرة الزيرباجة ، إذا أكلتها ، غسلت يدى أربعين مرّة .

* * *

من الواضح أن حكاية غسل اليد أربعين مرة أضيفت لتكون مدخلاً طريفًا لقصة طريفة ، فاليمين على أية حال يمكن التحلل منها والجارية قد ماتت والظروف تغيرت ، وقد أفاد الهمذانى من هذا المدخل فى احدى مقاماته ، وهى المقامة المضيرية ، حيث رفض أبو الفتح الاسكندرى أن يأكل المضيرة – على اشتهائها – لأنها تذكره بحادث قديم . وإذا دل الترف الذى تعيش فى قصور الخلفاء على نوع معيشتهم فإن ترف الحياة الذى انتهت إليه الجارية يدل على مقدار الحظوة وتمييز أعوان الطبقة ، وهذه الجارية لم تتردد فى أن تصف زوجها الذى اختارته بنفسها

(١) هاتم : لغة بغدادية فى هاتوا .

وسعت إليه بأنه عامى من سفلة الناس !! وهو رجل حر ميسور وهى جارية مشتراة . فى تحليل المواقف ووصف المشاهد كثير من الدقة وفكاهة لا تخفى هى من صميم الحكاية الشعبية .أما عناصر التشويق فإنها كفيلة بالاحتفاظ باهتمام القارئ إلى النهاية ، فالتاجر الشاب يحفظ وصية والده ويطبقها بحرص ، ومع هذا فإنه ينساها أمام روعة الجمال ، ويكاد رأس ماله يضيع مرتين ، وفى كل مرة يترك الظنون تتلاعب به وبنا فترة طويلة ،وحين يدفع به راوى القصة إلى مأزق جديد فإنه يتصاعد بدرجة التوتر إلى الذروة ، إنه ليس مهددا فى ماله هذه المرة ، بل فى حياته أو يتخلى عن الأمل الجديد ، فلابد أن تراه سيدة الجارية – أم أمير المؤمنين – وليس من طريقة سوى دخول دار الخلافة ، ويحرص القاص على أن يجعل التخفى هو الطريقة الوحيدة للدخول ، مع أن هناك طرقًا شتى ، لكى يقول إنه إذا ضبط التاجر فى القصر فإنه لا مفر من ضرب عنقه !! ويقبل التاجر ، وتكون رحلة الصندوق موتًا مستمرًا يتجدد مع مراحل التفتيش ، ويصل ذروته بمصادفة الخليفة نفسه . ويشعر القاص بأن بطل القصة – ونحن معه – فى حاجة إلى التقاط الأنفاس ، والاحساس باقتراب تحقق الأمنية ، فيحظى التاجر بموافقة السيدة ، وتجدد ثقة الفتاة بغير حدود ، وانهمار المال ، وسهولة الخروج من القصر . ثم يحدث توتر أخير يهدد كل ما مضى من مكاسب ، وذلك حين ترفسه الجارية وتعلن فشلها فى الاختياررفضها الاستمرار . وهنا يتبلبل ذهن القارئ ولا يدرى كيف يكون المخرج من هذا المأزق وقد غادر كل من الطرفين : التاجر والجارية – موقعه وحياته ولم يعد من اليسير العودة إليهما . وهنا يتضرع التاجر ويعتذر اعتذارًا حارًا ، ويهمل تماما ما وجهت إليه من شتائم واهانة ، فيرق قلب الجارية وتسامحه ، وبهذا وحده يستحق المكافأة وهى عدد من الأولاد الذكور ، وثروة كبيرة وجاه عريض . وإذا أدركنا أن المغامرة كلها إنما صنعتها الجارية إذ هى التى رأت التاجر وأحبته فسعت إليه ودبرت تدبيرها لتستهويه ، وأنه كان المنفذ والصدى لما تأمر وتقول ، عرفنا سر النهاية التى ساقتها القصة إليها ، فهذه الشخصية المغامرة التى تظهر فجأة وتفرض نفسها على من حولها ، ولا يستعصى عليها شىء ، لابد أن تختفى فجأة ، وأن يحدث هذا الاختفاء بعد أن تكون حققت أهدافها وتركت المسرح وقد تغير المشهد تماما ، لتبقى فى الذاكرة وقتا أطول ، ولتؤكد أثرها القدرى ومغزاها الأخلاقى . هى ضربة حظ ، وابتسامة قدر – بالنسبة للتاجر . وهى الجمال والذكاء والتدبير – بالنسبة لنفسها ، وقد ظهرت فجأة ، ولابد أن تختفى فجأة ،وقد كان .

السراج والموت عشقا :

لا مبالغة فى القول بأن كتاب « مصارع العشاق » يعتبر أكبر وأهم مصدر لأخبار وقصص العشاق ، مهما اختلفت اتجاهات عشقهم ، وأثره واضح فى كتابات من جاءوا بعده ، والنقطة

المركزية التى حكمت اختيار السراج هى بلوغ العاطفة منتهاها ، بالموت حبا ، أو الانتحار بسبب الفراق القسرى ، وما هو فى حكم الموت مثل الوجد والاغماء ، والجنون فى حالات كثيرة ، وقد تضمن عنوان الكتاب النص على هذا بتسميته « مصارع العشاق » ، ولم يفرق المؤلف بين الأخبار الممكنة أو المعقولة ، والأخبار المستحيلة – كما سبقت الاشارة إلى الزاغ أبى عجوة ، والدب المنقطع إلى الله – والقصص الواضحة الاختراع وإن استهدت الاتجاهات العامة للسلوك . وهذه المادة الغنيّة ، ذات الطابع القصصى بوجه عام ، يسوقها مسبوقة بالسند ، وعارية من النقد أو التعليق فى الوقت نفسه ، لا فرق بين خبر أو قصة مسندة إلى راوية شهير ، مثل الأصمعى أو وهب بن منبه ، أو شخصية منكرة كالمنسوب إلى بعض الأعراب أو شخص من البصرة ،أو رجل بغدادى .

ويمكن تصنيف قصص مصارع العشاق فى أربعة اتجاهات :

أولها ما يتعلق بشخصيات تاريخية شهرت بالعشق ، مثل عروة بن حزام وعفراء ، والمرقش وسعاد ، وكثير وعزة ، ويزيد بن عبد الملك وحبابة[1] . ويدخل فى هذا الاتجاه القصص ذات المصدر الدينى كقصة يوسف وزليخا وقصص أنبياء وزهاد بنى اسرائيل ، وثانيها : قصص أبطالها من المجانين ، الذين غلبهم الوله فأفقدهم عقولهم ، وهم يعيشون عادة فى المارستان أو الدير ، يجلس أحدهم فى ظل حائط ، أو تحت شجرة ، قد ربط إليها ، أو ضمت قدماه فى قيد ، وهذا المجنون عادة من « ملاح المجانين » ، شاب لم ير أحسن منه وجها ، يستغرق فى صمته ، أو يناجى بالشعر شخصا غير منظور ، ويبدأ راوى الخبر أو القصة بأن يلقى عليه سؤالا ، وقد يسأله المجنون عن بلده ابتداء ، فيكون السؤال فى الحالين مفجرا لمواجع العاشق الذى عصف الحب بعقله ، وهنا ينشد بعض الشعر ، يحمله ذكرياته وأشجانه ، وقد يحمل الراوية رسالة إلى محبوبته فى موطنها البعيد ، وكثيرا ما تكون هذه الرسالة بالشعر أيضا ، وقد يحدث أن يموت العاشق المجنون بعد تأدية هذه الرسالة ، وكأنما كان يعيش ليقوم بابلاغها ، كما قد يحدث أن يقوم الراوية بتأدية الرسالة ، فتموت المعشوقة بمجرد سماعها ، وكأنما كانت رمزًا خاصًا أو شفرة سرية ، تحمل الموت لمن يرسلها أو يتلقاها .

وهذا نموذج لقصص العشاق المجانين ، وأول رواتها – كما فى سلسلة السند التى تسبقها – أبو العباس المبرد ، قال :

---

(١) وليس هذا وقفا على السراج ، لقد اهتم بعشاق العرب كل من كتب عن الحب ،والجانب القصصى من أخبارهم اهتم به الأبشيهي أيضا ، انظر الجزء الثانى من المستطرف فى كل فن مستظرف . وانظر مخطوط : منازل الأحباب ومنازه الألباب ، فى أماكن شتى .

خرجت أنا وجماعة من أصحابى مع المأمون ، فلما قربنا من نحو الرقة فإذا نحن بدير كبير فأقبل إلى بعض أصحابى فقال : مل بنا إلى هذا الدير لننظر من فيه ، ونحمد الله ، سبحانه ، على ما رزقنا من السلامة . فلما دخلنا إلى الدير رأينا مجانين مغلولين ، وهم فى نهاية القذارة ، فإذا منهم شاب عليه بقية ثياب ناعمة ، فلما بصر بنا قال : من أين أنتم يا فتيان ، حياكم الله ؟ فقلنا : نحن من العراق . فقال : يا بأبى العراق وأهلها ! بالله أنشدونى أو أنشدكم ؟ فقال المبرّد : والله إن الشعر من هذا لطريف .

فقلنا : أنشدنا ! فأنشأ يقول :

اللّـــه يعـلم أننى كمد	لا أستطيع أبث ما أجـــد
روحان لى : روح تضمّنها	بلد ، وأخرى حازهـا بلد
وأرى المقيمة ليس ينفعهـا	صبر ، ولا يقوى بها جلد
وأظن غائبتى، كشاهدتى،	بمكانهـا تجد الذى أجد

قال المبرّد : إن هذا لطريف ، والله زدنا ! فأنشأ يقول :

لمـــا أناخـوا قبيل الصبح عيســهم	ورحّلوها ، فسارت بالهـــوى الابل
وأبرزت من خـلال السّجف ناظرهـا	ترنـو إلىّ ودمـــــع العين منهمـــل
وودعـت بنـــان عقْدهـــا عَنَم ،	ناديت لا حملت رجـلاك يا جمل !
ويلى من البين ! ماذا حل بى وبهـا ،	من نازل البين حـــان الحين وارتحلوا
يا راحـل العيس عجل كى نودعهـا !	يا راحل العيس فى ترحالك الأجل !
إنى على العهـد لـــم أنقض مودتهم ،	فليت شعرى لطـول العهد ما فعلوا ؟

فقال رجل من البغضاء الذين معى : ماتوا ! قال : إذًا فأموت . فقال له : إن شئت ! قال : فتمطى واستند إلى السارية التى كان مشدودا فيها فما برحنا حتى دفنّاه[1] .

والاتجاه الثالث يتمثل فى أخبار ، وليس فى قصص ، أبطالها من المتصوفة الذين هاموا وجدا بالغلمان ، بل مات بعضهم على أثر حرمانه من غلامه بالموت ، وتتعدد الأخبار من هذا النوع دون تعليق أيضا ، ولا تحمل صياغة هذه الأخبار أية اضافة من المؤلف توحى باتهام هذه العلاقة بين هذه الطائفة والغلمان من ذوى الوجوه الحسنة ، أو الاشارة إلى تناقضها مع حالة التجرد والتوحد التى ينبغى أن يحرص عليها أهل الطريق ، حتى وإن اشتمل الخبر فى ذاته على ما يعد فى صميمه دليلا على الانحراف الخلقى أو وجود الاستعداد لهذا الانحراف ومعاناة مقاومته .

---

(١) مصارع العشاق جـ ١ ص ٢١ ، ٢٢ .

فهذا محمد بن قطن الصوفى يصحب غلامًا جميلاً ، لا يفارقه فى سفر ولا حضر ، وبعد زمن طويل يموت الغلام ، يقول راوى الخبر ، وهو صوفى أيضا ،انه كمد عليه حتى عاد جلدًا وعظمًا ، فرأيته يوما وقد خرج إلى المقابر ، فوقف على قبره يبكى ، من وقت الضحى إلى أن غربت الشمس ، لم يبرح ولم يجلس رغم هطول المطر « فلما كان من الغد خرجت لأعرف خبره ، وما كان من أمره ، فصرت إلى القبر ، فإذا هو مكبوب لوجهه ميت ، فدعوت من كان بالحضرة فأعانونى على حمله ، فغسلته وكفنته فى ثيابه ، ودفنته إلى جانب القبر[1] » . ويتكرر مثل هذا الخبر عن مثل هذا العشق ، وقد يحدث العكس ، فيموت الصوفى ويبكيه الغلام بكاء مرا ، والجدير بالتأمل حقا أن الغلام يبرر هذا الحزن الشديد بما يلغى انتسابه إلى جنس الذكور صراحة ، فيقول : « وكيف أسلو عن رجل أجلّ الله تعالى أن يعصيه معى طرفة عين ، وصاننى عن نجاسة الفسوق فى طول صحبتى له وخلواتى معه فى الليل والنهار[2] » .

وتمضى أخبار عشق المذكر عن الصوفية إلى غيرهم ، وقد يصح لنا هنا أن نشير إلى أن هذا العشق كان محفوفا بالظنون ومحاطا بالتهم ، مهما قيل فى رمزيته أو القدرة على تجاوزه إلى جمال الخالق عز وجل ، فليس وجه المذكر مفتاح الجمال الالهى ، ولن يكون . ونجد عددا أقل من الأخبار القصصية تعيد إلى الذاكرة الحب الأفلاطونى ، حب المعلم للتلميذ ، من ذلك ما يروى من شغف مدرك الشيبانى بعمرو بن يوحنا النصرانى ، وقد كان المعلم يقصر دروسه على الأحداث لا غير ، وكما تذكر القصة فإنه عشق الفتى وهام به ، وكتب فيه شعرا شاع بين الطلاب ، فاستحيا الفتى وانقطع عن الدروس ، فمرض الأستاذ ، وسل جسمه وذهل عقله ، حتى سعى وسطاء يسألون المعشوق أن يقوم بزيارة عاشقه ، ففعل بعد الحاح ، فكان ذلك آخر عهد الشيبانى بالدنيا ، إذ نظر إليه حتى أغمى عليه ، وأنشد أبياتا « ثم شهق شهقة فارق فيها الدنيا »[3] .

ولسنا فى مجال مناقشة هذا اللون من العشق الشاذ من الوجهة النفسية أو العضوية أو دلالته الاجتماعية ، ونكتفى بأن نقطع بوجوده ، إذ لا يمكن أن يكون هذا الكم الهائل من الأخبار والقصص نابعا من فراغ ، ولكننا نعتقد أن عنصر الغرابة فى هذا العشق قد أغرى بالتزيد فى قصصه وأخباره ، وقد يكون للتلازم بين الصوفى والغلام ، والمعلم والغلام دون غيرهما من أصحاب الأنشطة الأخرى ما يغرى بالظن أنه كانت هناك رغبة فى « اعادة تمثيل » التصور الأفلاطونى للحب ، وهذا حين يكون للخبر ظل من الحقيقة ، على أن التزيد والمبالغة والرغبة

---

(١) مصارع العشاق جـ ١ ص ٣١ .

(٢) السابق ص ١٢١ وانظر أيضا ما كان يفعل مهرجان – المجوسى الذى أسلم وتصوف : ص ٢١٩ .

(٣) السابق ص ٢٤٢ .

فى مط الحوادث والدفع بها إلى الإغراب والمفاجأة قد يظهر فى بعض الأخبار حتى تتحول إلى قصة فيها كل عناصر القصة الفنية تقريبا ، بل يتضمن سياقها وصفا لها بأنها قصة أو حكاية ، ألقى بعضها فى مجلس ، وأكملت برواية أخرى أو من خلال اضافة رواها شخص آخر . وهذا معنى من معانى ما أشرنا إليه من قبل من أن المادة القصصية غير ثابتة ، وأنه يحدث أن يتحول الخبر الساذج الوجيز إلى قصة مركبة ممتدة المراحل .

ولسنا نشك فى أن الحرص على ذكر أسماء أشخاص لهم وجود حقيقى كان يحد من حرية القاص الراوية فى تطوير الحوادث أو تحريك الشخصيات بما يجعلها أكثر امتاعا لخيال السامع أو القارئ ، وأن هذا هو السبب الذى وقف بتلك القصص فى منتصف الطريق بين الرواية والابداع الفنى ، وسنجد هذا الابداع يتجلى فى أحسن صوره الممكنة حين تكون الأماكن والشخصيات ضاربة فى القدم أو غارقة فى التنكير ، سنجد أنفسنا والحالة هذه أمام قصة فنية ، تتحرك بحرية ، وتتكامل جوانبها بدوافع الاقناع والامتاع معا ، وهذا هو الاتجاه الرابع ، النادر ، الذى نجد له بعض الأمثلة الناضجة فى « مصارع العشاق » ، مثل هذه القصة التى يرويها رجل من بنى أسد ، ولا يفوتنا تنكير الراوية ودلالته ، ينزل طالبا القرى على بيت من بلاد قضاعة ، وفى البيت يجد امرأة كأنها الشمس حسنا ، ورجلا كأنه القرد قبحا ، يداعب طفلاً جميلاً ويقبله ، فيظن الرجل من العبيد ، ولكنه يكتشف أنه زوج المرأة ووالد الطفل ، أما قصة هذا الزواج الغريب فيرويها الرجل القبيح بنفسه . فقد كان الأخ السابع لسبعة اخوة ، وكان أبوه يسند إليه أحط الأعمال لقبحه ، وحدث أن ضلت بعض الابل فأرسله أبوه فى طلبها ، وقضى الفتى المحقور يومه فى عناء حتى إذا دهمه المساء لجأ إلى بيت صادفه ، فيه امرأة عجوز ، ما لبث أن وجد عندها هذه الفتاة الجميلة التى صارت زوجا له فيما بعد ، ويسجل الزوج الدميم ما دار بينه وبين الفتاة من حوار ، يدل على ثقتها بنفسها ، وسخريتها من دمامته ، وتهكمها به ، حتى تقترح عليه أن يأتى إلى خيمتها إذا نام الحى لكى يتحدثا !! تقول ذلك عبثا به وسخرية ، ولكنه كان يظن نفسه على باب مغامرة نادرة . وهكذا لم يكد الليل ينتصف حتى زحف إليها ، فإذا هى نائمة ، فهمزها برجله فتنبهت ، وما كادت تراه حتى زجرته ولعنته ، فخرج مستخذيا ، يحاذر أن يعثر بأبيها واخوتها المضطجعين أمام الخيمة كالسباع . وهنا تحدث مفاجأة جديدة ، إذ يهب الكلب الشرس نابحا يوشك أن يمزقه بأنيابه التى انغرست فى مدرعته ، فيتراجع الفتى مذعورا ، فإذا به يهوى فى بئر عميقة ، والكلب معه . وهكذا تتم المفاجأة الثانية ، ولكن القاص يخفف من عنفها لكى تكون المفاجأة الثالثة ممكنة ومثيرة أيضا ، فقد قدر الله أنه لم يكن فى البئر ماء ، وأن الفتاة سمعت ما حدث – وانظر إلى الآن كيف تناسى القاص أباها واخوتها رغم وجودهم فى مسرح الحادثة – ومن ثم أقبلت ومعها حبل تحاول انقاذه حتى لا ينكشف وضع لن تستطيع تبريره . ويتعلق الفتى بالحبل ، ولكنه بدل أن يصعد

إليها ، انهارت حافة البئر فهبطت الفتاة إليه واستقروا جميعا فى قاع البئر : الكلب ينبح فى ناحية ، والفتاة تبكى فى ناحية ، وصاحبنا حائر لا يستطيع أن يفعل شيئًا !! لقد وضح الآن كل شىء ؛ فقد استيقظ الأب وأبناؤه فلم يجدوا فتاتهم ولا ضيفهم ، وكان الأب قائفا عالما بالآثار ، فلم يلبث إلا قليلا حتى قال لأبنائه : أختكم وكلبكم وضيفكم فى البئر !! فتوائبوا جميعا ، فمن آخذ حجرا ، ومن آخذ سيفا ، ومن آخذ عصا ، يريدون أن يجعلوا من البئر قبرا لهما ، ولكن الأب حاول اعادة ثقتهم فى أختهم ، فأخرجوها والفتى من البئر ، ثم قال لهم : انكم إن قتلتم هذا الفتى طلبتم ، وإن خليتموه افتضحتم ، وقد رأيت أن أزوجه اياها . وفرض عليه مهرًا غاليًا تضامنت أسرة الفتى وأعانته عليه ، ففاز بهذه الحسناء فى النهاية[1] .

ونتوقف فى نهاية هذه الفقرة عند قصة أخيرة ، نظن أنها تنطوى على خصائص فن صياغة الخبر ، وصناعة القصة معا ، كما يتمثلان فى « مصارع العشاق » ، ففيها من جانب الخبر الحرص على ذكر السند ، ولكن أى سند يمكن أن يوثق به إذا كان بعض الرواة قد بلغ من العمر عند الرواية ثمانى عشرة ومائة سنة !! ؟ ثم يأتى وصف المجال والشخصيات وسطا بين التحديد والتنكير ، بحيث تكتسب القصة – فى مفهومهم – قوة الواقع ، ويتم الحوار فى القصة شعرا ، وتنم اللغة على قدر ظاهر من التصنع ، يؤكده هذا الختام الذى ليس من القصة ، وكأنما ابتدعت لتفسير اشارة شعرية ، أو أنه شعر يفسر بالشعر أيضا . أما بناء القصة فإنه يقوم على تناقض الطباع ، وكيف يكون مدعاة للتجاذب عند شخص ، ومدعاة للتنافر عند آخر ، وقد يمكن أن نجمل موضوعها فى أنه التطهير بواسطة الحب ، فبطلها زرعة بن رقيم ، فتى جميل شاعر من بيت شرف ، لكنه متهتك ، يؤمن بقدرته على سحر النساء ، أما المفداة ، فهى فتاة جميلة فصيحة بنت ثراء ، وفى مجلس عام لفتيان القبيلة وفتياتها يندفع الفتى الواثق من نفسه إلى مخاطبة الفتاة ، لكنها تتجاهله ، وتؤثر عليه فتى مهذبا اسمه حيى ، وله من اسمه نصيب كبير . ويدور الحوار بين الثلاثة ويغمز حيى جانب زرعة حين يلمح إلى اعتماده على جمال الخلقة وحده ، وهذا الجمال القشرى لا يعادل جمال الروح وعفة السلوك ، وهما الجمال الحقيقى . ويخرج زرعة مهزوما ، ويتعلق قلبه بالفتاة التى صدمته ، فيعتزل الناس ، ويتوحد فى حبها وهو صاحب الشهرة القديمة ، حتى ينحل ويموت . وهنا فقط يتحول موقف الفتاة . فهذه القصة ذات الأهداف الأخلاقية قد عرفها عصر الرومانسية ، فالحب أقوى وسائل التطهير ، وقد ينطوى الفتى المغامر أو المرأة اللعوب على نفس شريفة واستعداد عميق للاستشهاد فى سبيل الحب ، وهذا ما تحاول هذه القصة أن تثبته . ولعلها من القصص القليلة التى قامت على تصوير شخصية نامية ، تحولت من نهج أخلاقى وسلوكى إلى نقيضه ، وهذا الأسلوب فى تطوير

---

(١) السابق ص ٣٠٢ – ٣٠٦ .

الشخصية ليس واسع الانتشار فى القصص العربية القديمة ، حيث تقدم الشخصية عادة فى صورتها الدائمة أو نمطها السائد ، ثم تتحرك لتؤكد هذه النمطية فيها ، وليس لتنقضها كما حدث فى قصة زرعة والمفداة .

ويمكننا الآن أن نقرأ نص القصة لنتعرف على طبيعتها كاملة :

كان بذمار[1] فتى من حمير ، من أهل بيت شرف يقال له : زرعة بن رقيم ، وكان جميلاً شاعرًا لا تراه امرأة إلاّ صبت إليه ، وكان فى ظهر ذمار رجل شيخ كثير المال ، وكانت له بنت تسمى مفداة ، بارعة الجمال ، حصيفة اللب ، ذات لسان مصلق[2] ، تفحم البليغ ، وتخرس المنطيق ، وكان زرعة يتحدث إليها فى فتية من الحى ، وكان ممن يتحدث إليها فتى من قومها يقال له حيى ، ذو جمال وعفاف وحياء ، فكانت تركن إلى حديثه ، وتشمئز من زرعة لرهقه[3] ، فساء ذلك زرعة وأحزنه . فاجتمعا ذات يوم عندها فرأى اعراضها عنه واقبالها على حيى ، فقال :

صدود وأعراض وإظهار بغضة ، عــلام ولم يا بنت آل العذافر ؟

فقالت :

على غير ما شرّ ، ولكنك امرؤ عرفت بغل المومسات العواهر[4]

فقال حيى :

جمالك يا زرع بن أرقــم إنما تناجى القلوب بالعيون النواظر

فقال زرعة :

فــإن يك مما خسّ حظى لأننى أصابى فتصبينى عيون القصائر[5]
وإنى كــريم لا أزن بريبــة ولا يعترى ثوبىَّ رينُ المعــاير[6]

فقالت المفداة :

كذاك فكن ، يسلم لك العرض ، انه جمال امرىء أن يرتدى عرض طاهر

---

(١) ذمار : بلدة على مرحلتين من صنعاء .
(٢) المصلق : البليغ .
(٣) رهقه : خفة عقله وجهله .
(٤) أرادت بغل المومسات : أنه يدخل إلى المومسات ويعاشرهن .
(٥) خس حظى : صار خسيسا . القصائر ، الواحدة قصيرة : المحبوسة التى لا يسمح لها أن تخرج من بيتها .
(٦) أزن : أوسم . الرين . الدنس .

فقال حيى :

حياء كما لا تعصياه ، فإنما يكون الحياء من توقى المعاير

فانصرف زرعة وقد خامره من حبها ما غلب على عقله ، فغبّر[1] أياما عنها ، وامتنع من الطعام والشراب والقرار ، وأنشأ يقول :

يا بغية أهدت إلى القلب لوعة لقد خبئت لى منك احدى الدهارس[2]
وما كنت أدرى والبلايا مظلة بأنّ حمامى تحت لحظ مخالس
جلست على مكتوبة القلب طائعا ، فياطوع محبوس لأعنف حابس

فشاع هذا الشعر فى الحىّ وبلغ المفداة ، فاحتجبت عنه ، وامتنعت من محادثة الرجال ، فامتنع من الحركة والطعام ، فغبر على ذلك حول ، ومات عظيم من عظماء القبائل فبرز مأتم النساء ، فبلغ زرعة أن المفداة فى المأتم ، فاحتمل حتى تناءى نشزا ، واجتمع إليه لداته يفندون رأيه ويعذلونه ، فأنشأ يقول :

لم يلم فى الوفاء من كتم الـ ـحب وأغضى على فؤاد لهيد[3]
صابنا ذاك لاسم من جلب السّقـ ـم عليه ونفسه فى الوريد[4]

ثم شهق ، فمات ، وتصايح أصحابه ونساؤه ، وبلغ المفداة خبره ، فقامت نحوه حتى وقفت عليه ، وقد تعفّر وجهه ، وأهله ينضحونه بالماء ، فهمّت أن تلقى نفسها عليه ، ثم تماسكت ، وبادرت خباءها ، فسقطت تائهة العقل ، تكلم فلا تجيب ، سحابة يومها ، فلما جن عليها الليل رفعت عقيرتها ، فقالت :

بنفسى يا زرع بن أرقم لوعة طويت عليها القلب والسر كاتم[5]
لئن لم أمت حزنا عليه فاننى لألأم من نيطت عليه التمائم[6]
لئن فتّنى حيا فليس بفائتى جوارك ميتا حيث تبلى الرّمائم[7]

ثم تنفست نفسا نبّه من حولها فإذا هى ميتة فدفنت إلى جنبه .

---

(١) غبر : امتنع .
(٢) الدهارس : الدواهى .
(٣) اللهيد : الحصير .
(٤) الوريد : عرق فى العنق .
(٥) كاتم : أى مكتوم ، مجاز عقلى .
(٦) نيطت : ربطت . التمائم : التعاويذ ، الواحدة تميمة .
(٧) الرمائم : العظام البالية .

وقالت امرأة من حمير أشبلت[1] على ولدها بعد زوجها :

وفيت لابن مالك بن أرطاه ... كما وفت لزرعة المفدّاه
والله لا خست به أو ألقاه ... حيث يلاقى وامق من يهواه[2]
من ممتط ، ناجية ، شمرداه ... وعاثر قد خذلته رجلاه[3]

تريد قول الجاهلية : إن الناس يحشرون ركبانا على البلايا ، ومشاة إن لم تعقر[4] مطاياهم على قبورهم ، وهذا شيء كان من فعل الجاهلية .

* * *

قصص العشق فى خدمة العقيدة :

إن العلاقة بين الدين – أى دين – والحب علاقة تاريخية قديمة ، إن لم نقل انها فطرية ، وفى الديانات الوثنية اكتسبت الهة الحب منزلة بارزة ، واستباحت جميع الديانات تقارض ألفاظ الحب والهوى فى وصف العلاقة بين الانسان وخالقه ، كما اعتبر الحب ضربا من العبادة ، هذا إذا بلغ أقصى درجات استيلائه على النفوس ، وبلغ المحبوب فيه منزلة سامية فى قلب محبه ، واعتبر الحب فى أنقى صوره حين يخلص لواحد دون شريك ، وحين يسعى المحب للتضحية بهنائه الخاص فى سبيل سعادة محبوبه ، وهذه بذاتها صفات العابد فى أعلى درجاته : عبادة للواحد دون شريك ، وخروج من هوى الذات إلى مطلق طاعته فى أمره ونهيه .

وسيكون هناك حوار عن أثر العقيدة الاسلامية فى مقاومة النزعة الحسية ، وتنشيط – أو ايجاد – الاتجاه الآخر ، العذرى ، فى الحب ، ومن قبل الاسلام يمكننا العثور على قصص – وهى التى تعنينا الآن – ابتدعت لتزكيه العفة والنقاء الأخلاقى بين المتحابين ، ولكننا أكثر اهتماما بالحب وقصصه فيما يمكن أن يسمى اقرار الأهداف التربوية على أسس إسلامية ، والدعاية للعقيدة . وهذه القصص منتشرة تحت عناوين شتى فى الكتب التى اهتمت بالحب ابتداء من « المحاسن والأضداد » المنسوب إلى الجاحظ ، والموشى ، ثم توسع التنوخى والسراج ، وقد آثرنا الوقوف عندهما لأنهما الوحيدان تقريبا اللذان اختارا قصصهما على أساس من رعاية الشكل الفنى ووحدة الأثر الكلى للقصة ، فاهتم الأول بفرج من بعد شدة ، واهتم الآخر بالحب البالغ حد الموت أو ما هو قريب من الموت . واللمسة القدرية عنده

---

(١) أشبلت المرأة على أولادها : قامت عليهم بعد وفاة زوجها .
(٢) خست به : أنقصت من حقه . الوامق : المحب .
(٣) شمرداة : لم نجد هذه اللفظة فى المعاجم ، ولعلها تصحيف شمردلة : الناقة الحسنة الخلق .
(٤) الهوامش المتعلقة بالنص من جهد محقق الكتاب .

لا تتجلى فى الربط بين الحب والموت فحسب ، وإنما فيما يتكرر مرات كثيرة من موت المحب فى نفس اللحظة التى يموت فيهاالمحبوب ، مع عدم علم كل منهما بما حدث للآخر ، أو أن يحدث ذلك فى وقت يقف فيه المحب على قبر محبوبه ، وكأنها النهاية المتوقعة لمسرحية تراجيدية .

وليس من شك فى أن القصاص فى العصر الاسلامى حين ابتدعوا قصص العشق التى تمجّد الآخلاق الاسلامية ، وتنتصر للعقيدة وتظهر أثرها الغلاب الذى باستطاعته أن يكتسح كل ألوان الغواية ، أويبرزون بشكل مثير كيف يتحكم الهوى فى النفوس ، ويغلب على من كتبت عليه الشقاوة ، أويؤكدون المعنى القدرى للسلوك الانسانى ، وكيف يمكن أن ينقلب على نفسه ، فتتحول المرأة المبتذلة إلى راهبة ، أومتصوفة ، ويتحول العابد المسلم إلى الدير ويهجر دينه من أجل امرأة .. حين تحركت قصص العشق فى هذا الاطار الدينى إنما كان القصاص يهدفون إلى منافسة الوعاظ المحترفين ، ويسلبونهم قدرا ضخما من جمهورهم ، وذلك لأن القصص كانت ولاتزال فن التأثير المحبوب لدى العامة ، ولعل بعض هؤلاء القصاص – على الأقل – كان يرمى إلى غايات أكثر جدية ، تتجاوز مجرد المنافسة على كسب اقبال الجماهير ، ونقصد استخدام القصص فى التربية الدينية والتهذيب الأخلاقى ، فضلا عن رم الثغرة التى وسعها الفقهاء المتشددون بين الدين وعاطفة الحب ، باظهار أن الحب فى مختلف مستوياته واتجاهاته قد يكون هاديا إلى اللّه ، ودافعا إلى التطهر .

وقد لعبت الأديرة دورا مهما – فى العصر العباسى – لا نحب أن نتوسع فيه ، لكنه كان يبيح للماجن والمتماجن أن يعبث على هواه فى نجوة من الرقابة الاجتماعية وتوقع العقاب ، فليس غريبا أن نجد قصصا تصور هذا الجانب من نشاط الأديرة ، كما نجد قصصا مضادة تريد إثبات العكس ، أو تريد أن تقول شيئا آخر ، لعله نوع من استقراء أو استمداد الواقع ، فنجد راهبة تدخل فى الإسلام لأنها تهوى شابا مسلما ، كما نجد من يلازم الدير ، أو يهجر الاسلام لأنه عشق راهبة ، بل نجد قصة طريفة واضحة الافتعال ، حين يلتهب العشق بين فتاة نصرانية وشاب مسلم ، وفى الوقت الذى تقرر فيه الفتاة أن تدخل فى الاسلام لتبعث يوم القيامة على دين حبيبها ، وحتى لا تفترق عنه ، يكون الشاب قد دخل فى دين النصرانية ليبعث يوم القيامة على دين حبيبته ، وحتى لا يفترق عنها !! وفى « مصارع العشاق » بعض هذه القصص ، فنجد امرأة مسلمة فى بادية الشام تستعين برجل عابر أن يدخل إلى دير قريب ، ليسترد لها ابن عمها ، زوجها الذى غلبت عليه نصرانية ، فذهب وحدثه بما كان من كرم ضيافة الزوجة ، ولكن الشاب العاشق نادى فتاته النصرانية فبدت غاية فى الجمال والفتنة ، فقال للوسيط :

تبدلت « قسطا » بعد « أروى » وحبها كذاك لعمـــرى الحب يذهب بالحب[1]

كما يروى قصة أخرى عن الوليد بن يزيد الذى عشق سفرى النصرانية ، وإذا كانت القصة السابقة قد سجلت على الفتى المسلم هجران ابنة عمه وزوجته أروى من أجل الراهبة ، فإن الفتاة النصرانية هنا جنت بالوليد ، بعد أن عرفت ما ارتكب من شطط التخفى والتقشف والاختباء فى بعض البساتين ليحظى بالقرب منها ومخاطبتها[2] . ولن يغيب عنا ان اختلاف الدين بين العاشق والمعشوق فى القصتين لم يستغل لهدف الهداية أو الدعاية ، هو مجرد حب قد « صرع » المحب فى المرتين ، ولكن كتبا اخرى كانت أكثر حرصا على تلمس هذا المعنى الأخلاقى الذى لم يعن به السراج فى اختياراته من هذا القبيل ، وفى مقدمتها « ذم الهوى » .

وقصص المحبين الاتقياء كثيرة ، وطائفة العلماء والشعراء من المحبين العذريين لا تكاد حوادث حبهم وقصصهم تغيب عن كتاب من تلك الكتب التى اهتممنا بها من قبل ، باستثناء « الزهرة » الذى وجه طاقته الغالبة نحو الأشعار ، وهذه القصص يختلط فيها الخبر التاريخى بالصناعة الفنية ، فتتوالى أسماء مزدوجة من رجال ونساء ، شهر كل رجل بحب امرأة واحدة ، يتصدر عروة وعفراء القائمة ، ويذكران كمثل كامل للحب التقى ، وتمضى الظاهرة عبر شعراء مثل كثير ، وجميل ، وقيس بن ذريح ، وقيس بن الملوح ، وهؤلاء على تقواهم ونزاهة حبهم وكثرة المبالغات التى ألصقت بهم وبمحبوباتهم لم تستغل أسماؤهم فى الدعاية الدينية ، فى حدود الاطار الذى حددناه سابقا ، وبقى ذلك محصورا فى قصص العباد مثل القس وما كان بينه وبين سلامة ، ومثل قصص الرهبان والمتصوفة ، وسيكون الجانب الفنى موضع رعاية حين تكون الشخصية منكرة نسبيا ، حينئذ يمكن أن ينسب إليها ما لم يكن ، وتتقبله طبيعة الشخصية فى حدود القدر المعروف عنها . وقد غطى ابن الجوزى فى « ذم الهوى » هذه المساحة كاملة تقريبا ، وقد قادته الرغبة فى ذم الهوى الى الاسراف فى القصص التى تعتبر الحب انحرافا ينبغى مقاومته ، بعد مقدمة طويلة عن أهمية العقل وضرورة الاحتكام إليه فى كل ما يعرض للنفس ، وهو إذ يقرر أن « مخالفة الهوى أعظم من المشى على الماء » ، فإنه يرى أن محاسبة النفس وتوبيخها دليل على المجاهدة وجزء من قوامة المسلم على نفسه . ومن هذه النزعة المتجهة إلى تعذيب النفس يروى قصص بعض العباد عاقبوا أنفسهم على الخاطرة أو النظرة العابرة ، أو لمجرد توهم الاشتهاء دون فعل محرم . فهذا رجل من اتباع عيسى بن مريم ، وقد خرج الناس للاستسقاء ، يروى لعيسى أنه قلع عينه لأنه نظر بها إلى امرأة ، فيقول له المسيح : « ادع فأنت

(١) مصارع العشاق جـ ١ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .
(٢) مصارع العشاق جـ ٢ ص ١٦٨ .

أحق بالدعاء منى ، فإنى معصوم بالوحى وأنت لم تعصم » ، وهذا راهب يبكى حتى يفقد بصره لأنه نظر إلى جارية من بنى إسرائيل . أما العباد المسلمون فإنهم لايقلون عن ذلك تطرفا ، فى مجال المعاقبة على النظر بصفة خاصة ، فهذا ضيغم يحرم على نفسه الماء البارد ، يعاقبها على نظرة إلى امرأة ، أما غزوان فقد نظر إلى جارية فلطم عينه حتى نفرت ، وهذا عمرو بن مرة ، يعلن رضاه عن كف بصره جزاء على نظرة نظرها وهو شاب !!

وهناك أقوام آخرون قاوموا اللذة بمثل هذه الشدة فى مقاومة النظرة حتى أن المرأة تغلب على أمرها فتستسلم مقهورة ، لكنها تضع يدها فى مجمرة ملتهبة ، ثم تبرر ذلك لمن أرادها : أنك لما قهرتنى على نفسى خفت أن أشركك فى اللذة ، فأشاركك فى المعصية !! ومثل ذلك يروى عن زاهد أحسَّ دبيب الشهوة فى بدنه ! بل يروى ما هو أكثر استحالة من ذلك ، وهو أن راهبا كان يتعبد فى صومعته ، فأشرف منها فرأى امرأة ففتن بها ، فأخرج رجله من الصومعة لينزل إليها ، فلما أخرج رجله نزلت عليه العصمة وأدركته السعادة ، فقال : يا نفس ، رجل خرجت من الصومعة لتعصى اللّه تعود إليها وتكون معى فى صومعتى ؟ واللّه لا كان هذا أبدا . فتركها معلقة خارج الصومعة تسقط عليها الثّلوج والأمطار ، وتصيبها الشمس والرياح حتى تقطعت وتناثرت وسقطت !!

ونمضى عن مثل هذه الأخبار ، لنرى كيف جندت قصة الحب لخدمة العقيدة الاسلامية بشكل مباشر . والقصص فى هذا المجال تتسم بالايجاز ليكون ذلك أقرب لتوصيل المعنى ، وهو هدف القاص ، ولنفس السبب تختفى التفاصيل ويتركز الحوار بين شخصين ، هما رجل وامرأة على التحديد ، ومن المتوقع أن يكون بينهما تناقض أخلاقى هو موضوع الصراع وصانع التعقيد الفنى ، الذى قد يكون غاية فى البساطة والتركيز وقد يمتد قليلا ، وقد يتطور عبر أحداث متلاحقة . ونقدم نموذجا لكل نوع :

* « كان بالبصرة رجل له أكار[1] وكانت له امرأة جميلة حسناء ، فوقعت فى نفسه فركب زبيديته الى قصره ، وقال للأكار : القط لنا من الرطب وصيره فى الدواخل . ثم قال له : ايت به فلانا وفلانا ، فذهب به ، فلما مضى قال لامرأته : أغلقى باب القصر ، فأغلقته . ثم قال لها : أغلقى كل باب . ففعلت ، فقال لها : هل بقى باب لم تغلقيه ؟ قالت : نعم ، باب واحد لم أغلقه . قال : وأى باب هو ؟ قالت : الباب الذى بيننا وبين اللّه عز وجل . فبكى ثم قام عرقا وانصرف ، ولم يواقع الخطيئة »[2]

---

(١) الأكار : الحراث .

(٢) ذم الهوى ص ٢٧٣ - ٣٧٤

فهذه قصة شديدة التركيز ، ويلعب الحوار فيها الدور الأول ، وقد تدوول بين السيد وزوجة الحراث فى عبارات مقتضبة متوقعة ، لينتهى الى العظة ، وهى أن باب اللّه لايمكن اغلاقه ، فلا يمكن الاستتار منه سبحانه .

* وتلتقى بساطة البناء الفنى ووحدة الفكرة مع شىء من البسط والامتداد فى مثل هذه القصة ، وبطلها زاهد مكة عبيد بن عمير ، فقد روى أن امرأة جميلة بمكة ، وكان لها زوج ، فنظرت يوما إلى وجهها فى المرآة ، فقالت لزوجها : أترى أحدا يرى هذا الوجه لايفتن به ؟ قال : نعم . قالت : من ؟ قال : عبيد بن عمير . قالت : فائذن لى فيه فلأفتننه . قال : قد أذنت لك . فأتته كالمستفتية ، فخلا معها فى ناحية من المسجد الحرام ، فأسفرت عن مثل فلقة القمر ، فقال لها : يا أمة اللّه ! قالت : انى قد فتنت بك فانظر فى أمرى . قال : انى سائلك عن شىء فإن صدقتنى نظرت فى أمرك .

قالت : لا تسألنى عن شىء إلا صدقتك .

قال : أخبرينى لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرك أنى قضيت لك هذه الحاجة ؟

قالت : اللهم لا .

قال : صدقت .

وراح الزاهد المتصوف يكرر هذا النمط من الأسئلة ليكون الجواب فى كل مرة بالنفى ، فختم الحوار بقوله : اتقى اللّه يا أمة اللّه ، فقد أنعم اللّه عليك وأحسن اليك !!

وفى القصة سذاجة تصور ، فقد نقبل أن المرأة المغترة بجمالها يمكن أن تراهن زوجها على فتنة رجل صالح فيأذن لها ، ولكن امرأة تسعى إلى ذلك ستبدو غير موفقة حين تختار المسجد الحرام مكانا للكشف عن مغرياتها وما تحب أن ينتهى إليه أمرها مع الرجل الصالح ، وأغلب الظن أن صانع القصة رجل من الوعاظ لا دراية له بحيل النساء وكيف يحطن أنفسهن بأجواء تصير بذاتها أداة تأثير تصعب مقاومتها ، كما يكشف سياق الحوار عن نزعة عقلية جدلية ترجح هذا الرأى الذى نراه .

* وقد تستطرد القصة وتتفرع وتطول حتى تتعدد فى داخلها الايحاءات ، فتوظف مثل هذه القصة لأكثر من هدف ، يكون من بينها الهدف الاسلامى الأخلاقى ، ومثل هذه القصة منتشرة فى كتب العشق التى اهتمت بأثره الايجابى المطهر للنفس والدافع الى الانتصار على الشهوات ، مثل تلك القصة التى رواها جعفر السراج ، وبطلها أبو دهبل الجمحى الذى خرج الى الغزو فلما بلغ الشام ، وكان كما يقول صاحب مصارع العشاق – رجلا جميلا صالحا ، رأته امرأة

جميلة ذات ثروة وجاه ، فاستدرجته بحيلة الى مقرها ، ودعته إلى نفسها ، فرفض ، ورضى الحبس وسوء المعاملة ، ثم دعته ، فلما رأى ألا مناص ، قال : أما فى الحرام فلا يكون ذلك أبدا ولكن اتزوجك . وتزوجها وأقام عندها محبوسا حتى يئس أهله من عودته ، فاقتسموا ماله « وأقامت زوجه تبكى ولم تقاسمهم ماله ، ولا أخذت من ميراثه شيئا ، وجاءها الخطاب فأبت وأقامت على الحزن والبكاء عليه » ، ويمضى زمن حتى ترضى الزوجة الشامية أن تتركه ليعود إلى الحجاز ليزور زوجه الحجازية وأولاده ، وقد أعطته مالا جزيلا ، فلما رأى ما صنع أهله بميراثه أعطى كل ما معه من هدايا لزوجته وحدها ، مكافأة على وفائها وصبرها ، وحين اقترب موعد عودته إلى الشام جاءه خبر وفاتها ، فأقام بين أهله .

الانتصار للقيم الدينية فى مثل هذه القصة واضح ، فهى دعوة إلى الوفاء ، ومكافأة الأوفياء ، ودعوة إلى العفة ، واشارة إلى أنها تحقق من اللذات أكثر مما يحقق تجاهلها ، وقد يصح ما أشار إليه بعض الباحثين من أن القصة وضعت بحيث توحى بصفات معينة للمرأة الحجازية ، وأخرى للمرأة الشامية ، فى عصر المنافسة السياسية بين البلدين[1]

على أن الأثر الاسلامى سيتجاوز صياغة الخبر المروى ، وتركيب القصة المصنوعة لأهداف وعظية ليدخل فى صميم تصور شخصية العاشق ، وهذا أمر آخر سنتوقف عنده فى الفصل التالى . وإذا كانت أخبار بنى اسرائيل وقصص عبادهم قد حاولت أن تتسلل إلى المجتمع الاسلامى ، فكان فى موقع المتأثر ، فإنه – من جانب آخر – كان المؤثر ، إذ جاءت هذه القصص فى اطار القيم الدينية الاسلامية ، واصطنعت ألفاظا وعبارات اصطلاحية اسلامية ، وقد أوضحنا جانبا من ذلك من قبل .

(١) قصص العشاق النثرية فى العصر الأموى ص ١٩٥